

النظرية ومقاومة النظرية

ما معنى النظرية الأدبية المعاصرة، وما هي دائرة اهتماماتها وأين توجد حقول عملها، وكيف تنظر إلى نفسها بوصفها ممارسة؟ علينا أن نسأل أنفسنا هذا النوع من الأسئلة لنفهم الأسباب التي جعلت أعداء النظرية يهاجمونها بهذا القدر أو ذاك من الشراسة عادين ممارسة النظرية شكلاً من أشكال التعبد الصنمية التي اجتاحت الممارسة الثقافية في الجامعات والمؤسسات الأكاديمية بعامة، وصولاً إلى الصحف والمجلات وحتى البرامج الإذاعية والتلفزيونية في الغرب، وكذلك في العالم العربي. فعلى الرغم من صعوبة هذا النوع من الكتابة، الذي أطلق عليه بصورة خرقاء اسم «النظرية الأدبية»، وتعقده ولغته المتحذلقة في أحيان كثيرة، استطاعت النظرية أن تنتشر خلال ربع القرن الأخير انتشار النار في الهشيم آخذة في طريقها أشكالاً وأساليب كانت سائدة، مهدمة قلاع التقليد في الدراسات الأدبية وسائر العلوم الإنسانية. يرى ريتشارد رورتي أن النظرية هي نوع هجين ظهر في القرن التاسع عشر في زمان غوته وماكولي وكارلايل وإميرسون، وهي نوع من الكتابة لا يهتم بتقويم النتاجات الأدبية، ولا يعنى بالتاريخ الثقافي وحده، أو بفلسفة الأخلاق وحدها، أو بالتفكير الاجتماعي وحده، بل بهذه الأمور جميعها في الآن نفسه^(١). وبغض النظر عن صحة ربط رورتي النظرية بما كتبه عدد من الكتاب الأوروبيين والأمريكان في القرن التاسع عشر، أو عدم جواز هذا الربط، فإن ما يهمنا من تعريف رورتي هو أن النظرية لا تحصر نفسها في حقل محدد ولا ترى إلى نفسها بوصفها تخصصاً في العلم الإنساني أو الاجتماعي أو الفلسفة أو النقد الأدبي. إنها نوع من الكتابة العابرة لحدود التخصصات مما جعل انتشارها في المؤسسات الأكاديمية وغير الأكاديمية سريعاً

وشديد التأثير، وقادراً على الحلول محل التخصصات الضيقة والمعالجات الموضوعية في حقول مثل النقد الأدبي وعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرها من العلوم الإنسانية.

لكن النظرية بمعناها السائد الآن لا تنتسب إلى تأملات غوته وكارلايل وإميرسون، ولو جاز ذلك لكان من الممكن أن نعثر على نسب بعيد في الفلسفة اليونانية وفي تأملات الفلاسفة المصريين القدماء، وهو أمر يذوّب الظاهرة ويعزلها عن شرطها التاريخي الذي صدرت عنه، ويساوي بين النظرية الأدبية وكل أنواع الكتابة الحرة التي لا تلتزم منهجية محددة في قراءة الظواهر والنصوص.

في مفتتح كتابه «النظرية الأدبية: مقدمة» يشير تيري إيجلتون^(١) إلى أننا نستطيع أن نورخ لبدائيات النظرية الأدبية بما كتبه الناقد الشكلائي الروسي الشاب فكتور شكوفسكي في مقاله «الفن بوصفه وسيلة» عام ١٩١٧، إذ تغير معنى «الأدب» و«القراءة» و«النقد» منذ ذلك الوقت. وهو بهذا المعنى يربط تاريخ ظهور النظرية الأدبية بنصوص الشكلايين الروس، ومن ثمّ باتباعهم البنويين فيما بعد، الذين اهتموا بمعنى الأدب وبالشروط التي تصنع أدبية النص، وتمكننا من التعرف على عناصره الداخلية التي تحقق هذه الأدبية. لكن الشكلايين الروس لم يكتفوا بعزل عناصر الأدبية في العمل الأدبي بل إنهم درسوا بعض وسائل التحفيز التي تحدد أدبية الأدب أو فنية العمل الفني. إن «الأدبية»، بحسب شكوفسكي، هي وظيفة من وظائف ما يسميه «التغريب» أو «نزع الألفة» Defamiliarization.

لقد أسس الشكلايون الروس في العقد الثاني من القرن العشرين تقاليد جديدة للدراسة الأدبية ناقلين ثقل الاهتمام من حقل دراسة سيرة المؤلف والمجتمع، الذي ينجز فيه العمل الأدبي، إلى العمل الأدبي نفسه وطبيعة تشكله عملاً أدبياً واكتسابه هذه الصفة. ولعل الصيغ المنهجية والنظرية المحددة لقراءة العمل الأدبي، التي أنجزها عدد من النقاد الروس المتباينين الاهتمامات في بدايات القرن العشرين، هي التي ربطت ظهور النظرية الأدبية، لدى جميع مؤرخيها، بالشكلايين الروس الذين لم يكن عملهم متجانساً كما يظن البعض؛ لكن الحماس الذي رافق اشتغالهم على اللغة الشعرية وشعرية الشعر والنثر هو ما جعل مؤرخي النظرية الأدبية المعاصرة يدرجون عملهم تحت العنوان نفسه.

إذا انتقلنا إلى نهاية الخمسينات وبداية الستينات فإن أعلام البنيوية الفرنسية الطالعين في تلك الفترة، سينقلون ما يسمى «النظرية» إلى أفق آخر ويطورون اهتمام الشكلايين الروس بأدبية الأدب إلى نوع من الدراسة المنظمة للنص، عازلين هذا النص عن الشروط الخارجية التي تحيط بإنتاجه. وقد كان اللساني الروسي رومان ياكوبسون، أحد مؤسسي حلقة موسكو اللغوية وكذلك حلقة براغ اللغوية، هو من صك مصطلح «البنيوية» Structuralism، وبهذا المعنى اتصل نسب البنيوية الفرنسية وغير الفرنسية بأصلها لدى الشكلايين الروس.

يكتب ياكوبسون عام ١٩٢٩ معلقاً على العمل اللساني لفردينان دي سوسير قائلاً: «إذ نحاول إعطاء اسم للفكرة الأساسية للعلم في أيامنا، في مظهراتها العديدة، فلن نجد أفضل من تعبير البنيوية. ومن ثم فإننا لا نعامل أي طقم من الظواهر التي يقوم العلم المعاصر بتفحصها بوصفها كتلة ميكانيكية بل بوصفها كلاً بنيوياً. وتتمثل المهمة الأساسية في الكشف عن القوانين الداخلية للنظام»^(٣).

إن البنيوية تدعو إلى مفهوم النظام والكلية البنيوية وكذلك مفهوم العلائقية، الذي يحكم عناصر النظام، وتسعى إلى كشف القوانين الداخلية التي تحكم اللغة، وكذلك النص. ومن هنا نفهم سعي البنيويين إلى الدراسة التزامنية للنصوص والابتعاد ما أمكنهم عن الدراسة التعاقبية التي تقرأ تطور اللغة والنصوص في التاريخ. لقد انتقل العمل منذ ظهور عمل الشكلايين الروس، ومن ثم كتاب فردينان دي سوسير «دروس في الألسنية العامة»، ونسل البنيويين فيما بعد، من خارجيات النص إلى داخله في محاولة لتأسيس علم جديد للنص يحرره من القراءات الانطباعية والاجتماعية والنفسية التي تشد وثاق النص إلى كاتبه وبيئته التي ظهر ضمنها.

الخطوة المتقدمة الأخرى التي خطتها البنيوية تتمثل في زوال الحدود بين التخصصات في العلوم الإنسانية. لا تحصر البنيوية اهتماماتها بالنصوص الأدبية، وبمفهوم الأدبية الذي ركز عليه الشكلايون الروس، بل إنها تمد حقل عملها إلى الأنثروبولوجيا وعلم النفس ومناشط أخرى في مجال العلوم الإنسانية، بحيث نجد أن أعلام البنيوية في الستينات تتراوح اختصاصاتهم بين النقد الأدبي والأنثروبولوجيا وعلم النفس وعلم اللغة^(٤).

في هذا السياق من تطور عدد من المعارف الجديدة، التي جرى وضعها تحت عنوان عريض هو «النظرية الأدبية»، أخذت مظلة المصطلح الأخير تتسع لتشمل حقولاً من التحليل لا أظن أنه خطر ببال البنيويين الأوائل أنها ستنسب للبنيوية أو أنها ستكون نقيضاً لها طالماً من داخلها. وبغض النظر عن مجال التحليل أو طبيعة الاهتمامات، أو التشديد على مفاهيم بعينها أو الرغبة في الكشف عن صيغ متباينة من الممارسة الإنسانية، فإن ما يأسر اهتمام النسل الجديد من المعارف والخطابات هو الإمكانية غير المسبوقة لغزو مناطق جديدة من التعبير والممارسات وصيغ الوجود الإنساني. لقد بدأنا بالنص الأدبي، ومحاولة إيجاد علم للأدب مع الشكلايين الروس، مروراً بمحاولات البنيويين الفرنسيين والأمريكيين لضبط النظام في اللغة والأدب، وانتهينا إلى تشظي المعارف وحقول التحليل التي تترافق تحت العنوان العريض للنظرية. وهكذا فإننا عندما نتصفح أي كتاب يدور موضوعه حول النظرية الأدبية سنجد عدداً كبيراً من المدارس والتيارات والتخصصات والقراءات التي اجتمعت كلها تحت سقف «النظرية الأدبية». إن جولي ريفكين ومايكل رايان، على سبيل المثال، يضعان العناوين التالية لفصول كتابهما

«النظرية الأدبية: مختارات»^(٩)، والذي تزيد صفحاته عن ١١٠٠ صفحة: شكلانيات، البنيوية واللسانيات، التحليل النفسي، الماركسية، ما بعد البنيوية والتفكيكية وما بعد الحداثة، النسوية، دراسات الجنس: دراسات المثلية الجنسية ونظرية الشذوذ، صيغ من التاريخانية، دراسات الأعراق وما بعد الاستعمار والدراسات الدولية، الدراسات الثقافية. وهي عناوين، كما هو واضح، تدل على انفجار ما يسمى «النظرية الأدبية» وتوزعها على موضوعات وخطابات لا تحصى. وإذا طالعنا الأسماء التي تضمها مختارات ريفكين وريان فإنها تجمع إلى أسماء بوريس إخنباوم وشكلوفسكي وميخائيل باختين، وكليانث بروكس ورومان ياكوبسون وكلود ليفي شتراوس وجاك لاكان وجاك دريدا وميشيل فوكو وجان فرانسوا ليوتار وهيلين سيكسو وأدريان ريتش وإدوارد سعيد وهومي بابا، أسماء أخرى مثل سيغموند فرويد وكارل ماركس وفرديريك نيتشه ومارتن هايدجر وثيودور أدورنو وتوني موريسون. ومن الواضح أن جامعي هذه المختارات يقصدان الذهاب بعيداً للوصول إلى أسلاف هذا الخطاب الجديد الذي نطلق عليه «النظرية الأدبية».

لقد أصبحت النظرية الأدبية علم العلوم، كما كانت الفلسفة في غابر الزمان، وأصبح الناقد الأدبي العتيق، الذي غاب تحت ركام الخطابات المتباينة، مطالباً بتوجيه اهتماماته لا إلى النصوص الأدبية فقط بل إلى جميع مظاهر الوجود إلى الحد الذي دعا واحداً من مؤرخي البنيوية الأوائل، هو جونانان كُر، إلى القول بأن النظرية الأدبية ليست معنية بالدراسات الأدبية فقط بل بمجموعة من الكتابات التي تتناول كل ما تقع عليه أشعة الشمس؛ إنها تتضمن أعمالاً في الأنثروبولوجيا وتاريخ الفن والدراسات السينمائية ودراسات الجنس Gender واللسانيات والفلسفة والنظرية السياسية والتحليل النفسي، والدراسات التي تدور حول العلم ومفهومه، والدراسات التي تتناول التاريخ الثقافي والاجتماعي، وعلم الاجتماع.. إلخ^(١٠). كما أن هذه النظرية تعيد النظر في المعايير المتداولة والمسلمات وتبحث عن بدائل لهذه المعايير والمسلمات والافتراضات التي نعتقد بصحتها، وهي ليست كذلك. إنها تضع موضع المسألة عدداً كبيراً مما نأخذ في حياتنا اليومية وكتاباتها على عواهنه، ومن ضمن ذلك مفاهيم مثل المعنى، والمؤلف، والقراءة، والذات، وعلاقة النصوص بشروط إنتاجها^(١١).

إن النظرية بهذا المعنى عابرة للاختصاصات، تؤثر في حقول معرفية بعيدة عن الدائرة التي تعمل ضمنها. ولعل تيري إيجلتون مصيب إذ يقول إن النظرية الأدبية هي «كتلة من الخطابات الواهية الصلة ببعضها بعضاً نجمعها تحت عنوان مؤقت هو النظرية. ليس للنظرية تلك الهوية العتيقة المصونة التي تمتلكها الخطابات الأخرى، ومن ثمّ يمكن استخدامها لأغراض وغايات مختلفة»^(١٢).

*

إذا كانت النظرية لا تستقر على حال، كما أنها تعمل في عدد لا يحصى من الحقول، فمن أين تنبع مقاومتها والتحريض ضدها، والدعوة للتخلص منها والحديث عن قصورها وصنميتها؟ يبدو أن الانتشار الواسع للنظرية الأدبية، وقدرتها على الامتداد إلى حقول ومناطق جديدة كانت في السابق حكرًا على بعض المعارف والعلوم الإنسانية، وكذلك معالجتها للممارسات والتعبيرات الإنسانية المختلفة بوصفها نصوصاً خالصة، قد أدى إلى ترهل النظرية وابتعادها شيئاً فشيئاً عن إدراك الشروط السياسية والاجتماعية التي تجعل من «النصوص» التي تقرؤها النظرية ممكنة الوجود. لقد تحولت النظرية، بحسب روبرت شولز^(٩)، إلى ممارسة سحرية كتيمة hermetic وأصبحت النصوص تنعكس على ذاتها ولا يمكن إسنادها إلى مرجع، ولذلك فهي بعيدة عن متناول النقد وعن حقل بحثه.

يعتقد شولز، في تعليقه على هذا النوع من النظرية الأدبية المنسحبة من العالم، موقف إدوارد سعيد الذي يطلق عليه اسم «النقد الدنيوي»، أو العلماني، مقابل ما يسميه في الصفحات الأخيرة من كتابه «النص والعالم والناقد» «النقد الديني». ويرى سعيد أن «النصية Textuality» فرع من فروع النظرية الأدبية غامض وملغز ومطهر إلى حد بعيد (...). وغالباً ما تعزل النظرية الأدبية، كما تمارس في الدراسات الأكاديمية الأمريكية الآن، النصية عن الظروف والأحداث والإحساسات الفيزيائية التي جعلتها ممكنة الوجود وصيرتها واضحة ومدركة بوصفها نتيجة للعمل والجهد الإنسانيين^(١٠). ويختلف سعيد مع هذه الممارسة انطلاقاً من كونه يرى أن النصوص الأدبية «في أكثر أشكالها مادية منشبكة بالزمن والمكان والمجتمع. إن النصوص موجودة في العالم [الدنيا]، ومن ثم فإنها دنيوية». (ص: ٣٥)، وعلى هذا الأساس فإن هدف النقد الدنيوي هو «الوصول إلى إحساس مرهف بما تستلزمه قراءة أي نص، وإنتاجه وبثه، من قيم سياسية واجتماعية وإنسانية». (ص: ٢٦)

انطلاقاً من هذا الفهم لوظيفة النقد يميز إدوارد سعيد بين النظرية والوعي النقدي «فالوعي النقدي هو إدراك الاختلاف بين المواقف، وإدراك الحقيقة التي مفادها أن لا نظام، أو نظرية، يمكن أن يستنفد الموقف الذي منه انبثقت أو إليه انتقلت هذه النظرية (...) إن الوعي النقدي هو إدراك مقاومة النظرية، وإدراك ردود الفعل التي تثيرها النظرية في التجارب والتأويلات الملموسة التي هي في صراع معها. وفي الحقيقة أنني أريد أن أذهب بعيداً وأقول إن عمل الناقد هو توفير مقاومة للنظرية، وفتح هذه النظرية على آفاق الواقع التاريخي، على المجتمع والحاجات والاهتمامات الإنسانية. إن عمله هو أن يحدد الشواهد الملموسة المستخلصة من الواقع اليومي الذي يكمن خارج أو بعد منطقة التأويل». (ص: ٢٤٢)

تمثل الفقرة السابقة التي اقتبسناها من إدوارد سعيد واحداً من أكثر المواقف المضادة للنظرية قوة. إن سعيد، رغم كونه واحداً ممن أسهموا في تطوير آفاق النظرية الأدبية المعاصرة في

الغرب بخاصة والعالم بعامة، يفضل النقد على النظرية، ويسعى من خلال نقده لها إلى إعادة الاعتبار للنقد والتاريخ والوعي المستند إلى الممارسة الإنسانية التي وقفت منها النظرية، بعامة وعلى الأقل في أكثر أشكالها انحيازاً للنصية، موقف عداء. وهو الأمر نفسه الذي يتنبه له تيري إيجلتون عندما يقول «أظن أنه عندما تتجاوز النظرية الممارسة، وأنا هنا لا أتكلم بالتحديد عن النظرية الأدبية بل عن النظرية بالمعنى الواسع للكلمة، فإن ذلك يؤشر باتجاه وجود مشكلة. إنه يشير إلى وجود مشكلة في الواقع الاجتماعي العملي، وهذا بالطبع سوف يدفع النظرية إلى الالتفات إلى نفسها بأشكال قد تكون غير منتجة: وهذا يعني أن النظرية تصبح بشكل من الأشكال مكتفية بنفسها، ومولدة ذاتياً»^(١١).

إن الافتتان الثقافي بالنظرية الأدبية، في أوساط المؤسسة الأكاديمية الغربية، يقابله تنبه إلى المشكلات التي تولدها والحدود التي تقيم ضمنها عبر تناسي الشروط المولدة للنصوص والممارسات، في بعض تيارات هذه النظرية. لكن نقد النظرية، بوضع تياراتها في سلة واحدة والتعامل معها بوصفها متشابهة، يغفل في الحقيقة كونها مجرد مظلة تجتمع تحتها أشكال متنافرة من الممارسات النصية والنظرية والتحليلات التي تركز إلى مفاهيم وتصورات مختلفة للنصوص والعالم. لكن مقاومة النظرية، سواء بأشكالها التقليدية المعادية للتجديد النظري والمعرفي أو من خلال نقدها من داخلها، كما يفعل إدوارد سعيد وتيري إيجلتون مثلاً لا حصراً، هو نوع من الحيوية الثقافية والسياسية والاجتماعية التي ترفض أن يتحول الوعي النقدي للعالم إلى مجرد ممارسة نصوية على الورق بحيث ينسحب المثقفون إلى شرنقتهم الداخلية ليمارسوا طقساً سحرياً في فصل البشر عن شرطهم التاريخي.

فخري صالح
عمان

هوامش:

(١) أنظر:

Richard Rorty, Consequences of Pragmatism, University of Minnesota Press, 1982, p.66.

نقلاً عن:

Jonathan Culler, Literary Theory: A Very Short Introduction, Oxford: University Press 1977, p.3.

(٢) راجع:

Terry Eagleton, Literary Theory: An Introduction, Basil Blackwell, Oxford, 1983, p.vii.

(٣) أنظر:

Roman Jakobson, Selected Writings, The Hague - Mouton, vol. 2, 1971, p.711.

(٤) يصطف رومان ياكوبسون وغريماس ورولان بارت وكلود ليفي شتراوس وجاك لاكان وتزفيتان تودوروف تحت المظلة نفسها.

(٥) أنظر:

Julie Rivkin and Michael Ryan (editors), Literary Theory: an Anthology, Blackwell, Oxford, 1998.

(٦) أنظر جوناثان كلر، مصدر سابق: ص: ٣ - ٤ .

(٧) يدخل في نطاق النظرية دراسة مفهوم القوة والجنس وعلاقة المعرفة بالسلطة، كما لدى فوكو، ودراسة علاقة الاستشراق بطريقة نظر الغرب إلى الشرق وتشكيله لمفهوم الشرق على هواه ولخدمة أغراض غير علمية، كما فعل إدوارد سعيد في كتابه «الاستشراق».

(٨) من حوار أجراه مع إيجلتون مايكل بين ونشر في كتاب:

Terry Eagleton, The Significance of Theory, Basil Blackwell, Oxford, 1990. وانظر ترجمة الحوار في: فخري صالح (محرر ومترجم)، النقد والمجتمع، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٥، ص: ١٩٣ - ٢٢١ .

(٩) أنظر كتابه:

Robert Scholes, Textual Power: Literary Theory and the Teaching of English, Yale University Press, New Haven and London, 1985. Chapter 5.

وانظر ترجمة لهذا الفصل من قبل الكاتب في الكرمل، عدد ٢١ - ٢٢، نيقوسيا (قبرص)، ١٩٨٦، ص: ٣٥٧ - ٣٦٦ .

(١٠) أنظر كتاب إدوارد سعيد:

Edward Said, The world, the Text and the Critic, Faber and Faber, London, 1983, pp.3-4.

وقد قام روبرت شولز بتصدير الفصل الخامس من كتابه «سلطة النص»، المشار إليه سابقاً، بالفقرة السابقة من كتاب إدوارد سعيد. وهو يشير في بداية هذا الفصل، أن سعيد يرى أن على المرء إذا أراد أن يصبح ناقداً أن يطرح النظرية ويتخلى عنها صراحة لأن النظرية الأدبية المعاصرة، وحسب سعيد، «قد أدارت ظهرها للعالم لتحتضن مفارقات النص الضدية والتباساته غير المفكر بها».

(١١) أنظر إجابته على سؤال وجهه إليه مايكل بين في مصدر سابق، ويمكن مراجعة الحوار معه في ترجمته العربية في: فخري صالح (مترجم ومحرر)، النقد والمجتمع، ص: ٢٠٤.